عبد الغفار مكاوي
فيلسوف الحرية وأديبها
(قصة حياة فيلسوف)

بقلم: د. غيضان السيد علي(*)

عن عمر يناهز ٨٢ عاما، قضاها مكاوي مهموما بالعلم والمعرفة، بالفلسفة والشعر والقصة والرواية، بمعرفة اللغات الأجنبية وتدريسها وترجمة روائعها وإبداعاتها إلى العربية من أجل إثراء الثقافة العربية وزيادة واتساع أفق المثقف العربي، رحل في صمت وبعيدًا عن الأضواء كما كان ينشد طوال حياته؛ حيث أعلن كثيرًا أن كل ما يريده هو أن يعيش في هدوء وأن يعمل في هدوء وأن يموت في هدوء ! ومن ثم فلم يكلف نفسه عناء السعي المحموم وراء الشهرة وجذب الأنظار، وإنما يبقى التعفف عن الشهرة مسألة مبدأ وطبع وأسلوب حياة لهذا الفيلسوف والأديب العربي الأصيل.

ولد عبدالغفار مكاوي بمدينة بلقاس بمحافظة الدقهلية عام ١٩٣٠م وتخرج في قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة عام١٩٥١م، ودرس بجامعة بريجا وبرلين الحرة وفرايبورج بألمانيا، وحصل من الأخيرة على درجة الدكتوراه في الفلسفة والأدب الألماني عام ١٩٦٢، وعمل بدار الكتب المصرية تحت رئاسة توفيق الحكيم قبل أن يلتحق بسلك التدريس الجامعي عام ١٩٦٥، ثم عمل مدرسا بقسم اللغة الألمانية بآداب القاهرة بين عامي ١٩٦٥-١٩٧٢، ثم انتقل للتدريس بقسم الفلسفة ورقي إلى أستاذ مساعد ثم أستاذ بنفس القسم، أعير للعمل ببعض الجامعات العربية والإفريقية فعمل بجامعة صنعاء وجامعة مالي، وتبقى الفترة الأطول والأكثر إبداعا في حياته تلك التي قضاها في جامعة الكويت والتي بلغت سنوات عشر، شارك خلالها بالكتابة

(*) مدرس الفلسفة الحديثة بكلية الآداب – جامعة بني سويف.

الأدبية والفلسفية بمعظم المجلات الثقافية في مصر والوطن العربي، كما شارك في هيئة تحرير مجلة «المجلة» مع الأديب الكبير يحيى حقي، و« مجلة الفكر المعاصر » مع الراحل العظيم فؤاد زكريا. وترك لنا مكاوي روائع خالدة في الفلسفة والأدب، منها على سبيل المثال لا الحصر، في مجال الأدب: ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر - البلد البعيد - التعبيرية - النور والفراشة- هيلدرين- لحن الحرية والصمت- ملحمة جلجامش – قصيدة وصورة. و من أبرز مؤلفاته في مجال الفلسفة: مدرسة الحكمة – نداء الحقيقة – المنقذ.. قراءة لقلب أفلاطون- لِمَ الفلسفة؟- النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت- الحكماء السبعة. وحصل مكاوي على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ٢٠٠٣م؛ نتيجة اهتمامه بكثير من القضايا الثقافية والأدبية وإن بَعُد – كما سبق أن قلنا - عن ضوضاء الشهرة وآثر الحياة الهادئة، فبدا كفيلسوف كانطي يهتم بالفعل ولا ينظر إلى النتائج أو المكاسب التي تُجنى من ورائه.

ولما لم يكن في لغات البشر كلمة تخفق لها القلوب قدر ما تخفق لكلمة الحرية، كان هو الباحث عن الحرية في رؤيته الفلسفية وفي أدبه المبدع وترجماته العديدة، وكانت الحرية هي الخيط الوحيد الذي يربط كل أعماله سواء الفلسفية أو الأدبية أو حتى المترجمة منها، فكانت الحرية عند مكاوي «بداية البدايات» و«القضية الأولى والأخيرة»، و«أن كل كلمة لا تنصب بصورة مباشرة أو غير مباشرة في الحرية، لا تستحق المداد الذي كُتبت به ولا الوقت الذي يُنفق في قراءتها». ومع الرحيل يظل مكاوي في الثقافة العربية قامة فلسفية وأدبية تحفظ ماء وجه هذا الزمان الذي كثر فيه الأشباه وزعم الكثيرون أنه زمن «الرويبضة»، ليعلن بعبقريته الفلسفية وإطلالاته الأدبية المتعددة زيف هذا الزعم، فيداخلك فور قراءته شعور بأنك تحاور «نيتشه» فيلسوفه الأثير الذي لم يستطع مكاوي أن يخفي فرط إعجابه به، أو تقرأ «هيدجر» في ثياب عربية، أو أنك تتناول وجبة فلسفية دسمة تأخذك إلى عالم « كانط» النقدي.

يمثل عبد الغفار مكاوي في الحقيقة عودة -على استحياء- إلى الفلاسفة الموسوعيين في ثقافتنا العربية في عصرها الذهبي من أمثال: الكندي والفارابي وابن سينا وأبي حيان التوحيدي وابن رشد والإدريسي وابن خلدون وابن الهيثم... إلخ، حيث ألم هؤلاء بعلوم الطب والفلك والكيمياء والأدب والفقه والتنجيم والجغرافيا إلى جانب الفلسفة واللغات والألسن وغيرها من العلوم المختلفة، في حين برز مكاوي أديبا رفيع المقام بين أدباء جيله، وفيلسوفا من طراز خاص يحلق في عالم الفلسفة بأجنحة شتى، عليما بلغات متعددة. فهو كما يقول أحد معاصريه: «هو أستاذ

فلسفة، قاص، كاتب مسرحي، شاعر، ناقد، خرج من معطف سقراط، وأفلاطون، والفارابي، ونيتشه وهيدجر، كما خرج من معطف سوفوكليس، وسافو، والمتنبي، والمعري، وهيلدرلين، وبريخت، وشوقي، وطه حسين، وناجي، وصلاح عبدالصبور، إنه.... عبدالغفار مكاوي»[(١)]. أتقن الألمانية والفرنسية واللاتينية مع إلمام بأطراف الأسبانية والايطالية، وقد انصبت هذه اللغات كلها في بوتقة عشقه للعربية و إطلاعه على تراثها الأدبي والفلسفي على السواء.

فهو يجيد الفرنسية فيسمعنا دقات قلب وعقل فيلسوف التمرد الفرنسي «ألبير كامي» ويضع يده على مفتاح شخصيته حين يصفه بأنه واحد من أنبل الكتاب وأشدهم أمانة وأبلغهم دفاعًا عن حرية الإنسان وكرامته. تتجلى هذه الصفات في ثنايا حديثه عن حياة كامي ومعنى المحال والتمرد والتضامن عنده، ومن كامي أيضا تشرب مكاوي وتشبع بتلك الروح التراجيدية المأساوية التي طغت عليه في «البكائيات» أو في بعض أعماله الأدبية، وخاصة المسرحيات كالبطل ودموع أوديب، وبشر الحافي يخرج من الجحيم، والقيصر الأصفر، فيقول: «من كامي تشربت النزعة التراجيدية أو المأسوية والعطش المتجدد للطبيعة وللنور والحياة، ثم لازمتني عاطفة الحب له والارتباط بتشاؤمه وبراءته وأمانته وتمرده حتى إعداد رسالتي عن فكره الفلسفي بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات»[(٢)].

ومنه أيضا تنفس بعض نسمات الحرية كما تبدت من خلال كتاباته، فالحرية عند كامي -كما عند غيره من الوجوديين- هي صميم الوجود الإنساني، وهي أمل إنساني ومشكلة إنسانية، وهكذا كانت عند مكاوي.

ومن خلال ترجماته من الألمانية نستطيع أن نسمع صدى المسرح الألماني الذي يفيض بالمأساة والتراجيديا، وهو رافد آخر من روافد البحث عن الحرية من خلال المأساة، وهذا ما نلمحه جليا في ترجمات مكاوي لمسرحيات «جورج بوشنر» الثلاث (موت دانتون، ليونس ولينا، فويسك). كما ترجم مكاوي فيما بعد أوبرا «ماهاجوني» وصدرت في المشروع القومي للترجمة١٩٩٩، و إذا ما عدنا إلى الفلسفة الألمانية وقد بدأت علاقة مكاوي بالألمانية في وقت مبكر من عمره، إذ بدأ تعلمها وهو في سن العشرين، إيمانا منه بأن تعلم اللغات الأجنبية

(١) د. عبد العزيز المقالح: ملحق « بكائية إلى صلاح عبدالصبور» تأليف: عبد الغفار مكاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢، ١٢٨.

(٢) د.عبد الغفار مكاوي: سنوات التكوين، مجلة أوراق فلسفية، العدد السادس، القاهرة. ٢٠٠٢، ص ١٧٤.

هو السبيل الوحيد للخروج من واقع الطبقة المأزوم[١]. فإننا نجد ترجماته الفلسفية تعبيرا صادقا عن التزامه الفكري تجاه مشكلات واقعه وحال أمته العربية، فترجم عن كانط كتاب «تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق» معلقا في آخر سطور مقدمته لترجمته العربية - التي صدرت عن الدار القومية للنشر بالقاهرة- قائلا: «فإذا أفلح هذا الكتاب - في زمن نحن أحوج ما نكون فيه إلى الأخلاق - في أن يعيد للأمر الأخلاقي شيئا من جلاله ورهبته، فحسب مؤلفه العظيم أن يكون جزاؤه من قراء العربية هذا الجزء»[٢]. الأمر نفسه نجده في سائر الترجمات كما يبدو في ترجمته لـ«فلسفة العلو» التي ترجمها عن أستاذه الذي عمل تحت إشرافه «فولوجانج شتروفه» في عام ١٩٧٤. أو في ترجمته لنداء الحقيقة لهيدجر عام ١٩٧٧ وهو نفس العام الذي صدر له فيه ترجمة لنصين مهمين للفيلسوف الألماني ليبنتس وهما: «المونادولوجيا والمبادئ العقلية للطبيعة»، و«الفضل الإلهي» وقد راجع هذين النصين على النص الألماني لما كانت الترجمة عن الفرنسية، ونشر عام ١٩٩٥ نصين في غاية الأهمية الأول لكانط بعنوان «ما التنوير»وهو من خلال ترجمته لهذا النص يبعث برسالة شديدة اللهجة إلى أمته العربية التي أصرت على الرجوع إلى الوراء والصعود إلى الهاوية رافعة شعار التنوير، فأراد أن يجيب عن سؤال التنوير من خلال كانط الذي يقول في السطور الأولى لهذا النص: «التنوير هو خروج الإنسان من قصوره الذي اقترفه في حق نفسه، وهذا القصور هو عجزه عن استخدام عقله إلا بتوجيه من إنسان آخر، ويجلب الإنسان على نفسه ذنب هذا القصور عندما لا يكون السبب فيه هو الافتقار إلى العقل، بل إلى العزم والشجاعة اللذين يحفزانه على استخدام العقل بغير توجيه من إنسان آخر، لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك ! ذلك هو شعار التنوير»[٣]. أما النص الثاني فيبدو فيه مكاوي حريصا على نقل صورة أستاذه شتروفه عن مصر، أو مصر في عيون شتروفه من خلال ترجمة مقاله «خواطر عن مصر». ثم قدم مكاوي دراسات متعددة عن نيتشه الذي قال عنه «إنه فيلسوفي المفضل» وقال أيضا: أميل أحيانا إلى تشبيه نفسي بنيتشه، كما اعتنى أيضا بدراسة «النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت».

(١) جمال سليمان: عبد الغفار مكاوي والفلسفة الألمانية، مجلة أوراق فلسفية، العدد السادس، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٧٩.

(٢) عبد الغفار مكاوي: مقدمة تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ص (ز).

(٣) كانط، ما التنوير، ترجمة :عبد الغفار مكاوي: مجلة أوراق فلسفية، العدد السادس، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٨٢.

والجدير بالذكر أن عبدالغفار مكاوي حينما يعالج موضوعات الفلسفة الألمانية نجد أن الحدود الفاصلة بين فكر المؤلف الأصلي وبين فكر مكاوي تتماهى حتى تكاد أن تختفي لتؤكد تمثل مكاوي وتعاطفه الشديد مع ما يكتب. فهو مهموم بالبحث عن واقع أفضل لأمته، فينتقد بشدة فكرة انعزال وتعالي الفيلسوف في البرج العاجي فيرى: «أن الفلسفات الكبرى تؤكد أنها لم تخلو أبدًا من قدر من المشاركة في الواقع والتعاطف معه أو الاندهاش منه ومحاولة تجاوزه ونقده والشك في أوضاعه، وأنها لم تنفصل عنه تماما ولا قصرت في القيام بدورها النقدي له بأساليبها الصورية والتعميمية المجردة وغير المباشرة، وربما تكون مشاركة الناس حياتهم، وتبصيرهم بحقيقتهم وحقائق واقعهم وتقديم دليل عقلي وعملي يوجه تفكيرهم واعتقادهم وسلوكهم ويساعدهم على صنع حاضرهم وتشكيل مستقبلهم، إلى غير ذلك من مهام معرفية، أخلاقية وجمالية. هذه وغيرها هي بعض الواجبات الملقاة على كتفي «سقراط العرب» الذي صهرته نيران المحنة»[1]. و مع ذلك تبقى الحرية هي قضيته الأولى والأخيرة سواء في الفلسفة أو في الأدب. فهو ما برح يحلم بمجتمع سوي يسترد فيه الإنسان وجهه الأصيل ممن شوهوه، وينتشل قيمه من مستنقع اللا- قيم الذي فرض عليه التردي فيه ويستقر به المقام في عالم الحرية وعدم الاستعباد.

الحرية والفلسفة:

الحرية مفهوم فلسفي أصيل، شغل الفلاسفة والمفكرين في جميع العصور، فمشكلة الحرية بلا ريب من أقدم المشكلات الفلسفية وأعقدها، فقد واجهت الباحثين من قديم الزمان، وما برحت تؤرق مفكري اليوم كما أرقت من قبل فلاسفة اليونان، فلا أحد يستطيع أن يتجاهل مسألة الحرية في الفكر الإسلامي أو ذلك الاختلاف والتنوع في الرؤى بين الفرق الإسلامية الجهمية والمعتزلة والأشعرية والماتريدية... إلخ في تناولهم لمشكلة الحرية، حقا إن هذه المشكلة كما قال الفيلسوف الإنجليزي «بين»، هي (قفل) الميتافيزيقا الذي علاه الصدأ من كل جانب، ويعرفها أهل الاصطلاح بأنها «الإرادة الفردية التي تختار الفعل وتميزه عن روية وتدبير مع إمكان عدم اختيار الفعل أو القدرة على اختيار نقيضه». وقد اكتسبت مشكلة الحرية أهمية جديدة في الفلسفة الحديثة والمعاصرة وفي الفكر العربي المعاصر، بحيث قد يكون من الممكن أن نعدها مفتاح المشكلات الفلسفية جميعا.

(١) عبد الغفار مكاوي: جذور الاستبداد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٤، ص١٠.

والفلسفة عند عبد الغفار مكاوي هي في صميمها دعوة للحرية، حيث لم تعد الفلسفة عنده «محبة الحكمة» وإنما أصبحت ممارسة للحكمة وتعميقا للواقع وكشفا عن أصوله الدفينة، وموقفا فلسفيا شاملا من الوجود والحياة والسياسة، أصبحت تضحية بالمؤقت من أجل الدائم، وبالعرض من أجل الجوهر، وعلى ذلك يكون جوهر الحرية عند مكاوي هو الإنصات للواقع لكن مع عدم الاستسلام له، ومن ثم تكون الحرية هي محاولة تغييره وتجاوز محنه ومشكلاته. فهو يحلم بمجتمع سوي يسترد الإنسان فيه وجهه الأصيل ممن شوهوه وينتشل قيمه من مستنقع اللاقيم الذي فرض عليه التردي فيه، مجتمع يحيا فيه ويعمل ويأمل ويبدع إنسان سوي يجد القدر المعقول من الحرية والعدل، ويؤمن بأن القانون هو السيد - كما قال أرسطو - وليس هو الغدر والتسلط والفوضى والجهل والهوان[١]. ولذلك يمكننا القول بأن مهمة الفلاسفة عند مكاوي ليست تفسير العالم فحسب ولكن العمل على تغييره وقيادته نحو الأفضل.

وهو في تفلسفه لم يقع أسيرًا لفكر ما رغم إعجابه الجم بهذا الفيلسوف أو ذاك، لم يقع في أسر المذاهب الفلسفية الكبرى مهما بلغت قدرتها على جذب الأنظار، إذ يقول: «أحاول أن استفيد من كل المذاهب بقدر جهدي لكي لا أسمح لواحد منها أن يستعبدني»[٢]. وفي الفكاك من أسر الآخرين رغم الحرص على التعلم منهم لهو دعوة جوهرية بالقول وبالفعل إلى الحرية الفكرية المستنيرة غير المنغلقة على ذاتها، دعوة أيضا إلى الحوار مع الآخر من أجل إكمال النقص، لكنه الحوار الخلاق الذي تكون فيها الأنا موجودة ومحورية، لكي تصبح الفلسفة لديه هي التفلسف، وليست الاقتصار على ترديد أقوال الآخرين ؛ لأن هذا الأخير من شأنه أن يحيل الإنسان إلى ببغاء عقله في أذنيه، مهمته هي الترديد ليس إلا، ليستجلب انتباه الآخرين وهو في الوقت ذاته يروج لبضاعة لا ناقة له فيها ولا جمل.

وبما أن الفلسفة لديه أصبحت هي التفلسف وليست اجترارا للنظريات الفلسفية الوافدة من الغرب أو الشرق، وبما هي أيضا وضع كل شيء موضع السؤال، فإن هذا يتطلب أن تكون الفلسفة تحررًا دائما بل ومحاولة لمساعدة غيري على التحرر[٣]. ويتجاوز هذا الفهم العام للفلسفة، الفلسفة بما هي كذلك ليشمل أمانة الكلمة أيًا كان المجال الذي تأخذ على عاتقه

(١) عبد الغفار مكاوي: سنوات التكوين، ص ١٧٨.
(٢) عبد الغفار مكاوي: شعر وفكر. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، ص٤٠٥.
(٣) عبد الغفار مكاوي: شعر وفكر، ص٤١٤.

تناوله، وبناء على ذلك يقول مقولته التي تشبه مقولات هوميروس في الإلياذة مع الفارق أن مكاوي يتطلع لمغازلة معشوقته الأولى والأخيرة وهي الحرية فيقول «إن كل كلمة لا تنصب بصورة مباشرة أو غير مباشرة في الحرية، لا تستحق المداد الذي كُتبت به ولا الوقت الذي ينفق في قراءتها»(١).

وإذا كانت مهمة الفلسفة هي تحرر النفس وتحرير الآخر فإن هذا التحرير لا يتم بانفصال المفكر أو الفيلسوف عن واقعه والحياة في الأبراج العالية وإنما يكون مكان الفيلسوف مع الناس يحس بواقعهم المأساوي ويشعر بالآمهم ويسمع آهاتهم وأنينهم، وفي هذا يقول :» وليس معنى هذا أن نطالب المتفلسف العربي بأن يكون شاعرًا وفنانًا، ولا حتى بأن يكون باحثًا ميدانيًا، بل معناه أن نطالبه بالبدء من التجربة الحية، ومشاركة الناس، (الذين طالما تجاهله الفلاسفة) مواقفهم وتجاربهم واختياراتهم ...الخ. بما هو مواطن وشريك قبل تحليلها وتفسيرها وردها إلى شروطها وأسسها الأولى(٢).

فتحرر النفس هدف الفلسفة الأول عند مكاوي وتحرير الآخر أو مساعدته على التحرر هو الهدف الثاني، ومن ثم تتماشى هذه المهمة المزدوجة للفيلسوف والفلسفة مع فهم ماهية التغيير الذي يتراوح بين «تنوير» الباطن أو الخارج والبدء في الحالتين من جديد ومن الصفر، بل يتماشى مع فهم عمل الفلسفة بوصفها فلسفة العمل التي تكمن وراء كل تطور وانجاز. كما يرى ضرورة مناهضة تلك الأنا المتسلطة والمسيطرة حتى اليوم على الباطن والظاهر، الإنسان والطبيعة(٣). حتى يمكننا تفادي الانتحار الحضاري والانقراض المعنوي بفضل الطغاة المتخلفين وأنظمتهم المتخلفة.

في البدء كانت الحرية وفي الختام كانت الحرية أيضا، وبين البدء وبين الختام من الممكن للقارئ أن يصنف تفلسف وفلسفة عبدالغفار مكاوي.وهذا ما يصرح به مكاوي في صدر كتابه «جذور الاستبداد»، حيث يقول: «فإن الحكمة التي لا أشك فيها أنه سيخرج بها من قراءة نصوص الحكمة البابلية على ضوء الأهوال التي جرت في الماضي والحاضر هي أن تراث الطغيان وما يلازمه من العسف والظلم، والقهر والفقر، واليأس والبؤس... إلخ، أقدم بكثير

(١) عبد الغفار مكاوي: شعر وفكر، ص٤٠١.
(٢) عبد الغفار مكاوي: جذور الاستبداد، ص ١٠.
(٣) عبد الغفار مكاوي: جذور الاستبداد، ص ١١.

مما نتخيل عادة، وأن تجاوزه بتراث آخر يبدأ من بداية البدايات، وأقصد بها الحرية، قد بات أمرًا لا يحتمل التهاون أو التأجيل»[١].... ويرى في الطغيان رأس المشكلات والأزمات، وأن كوابيس الاستبداد الخانق أو كوابيسه المتنوعة الأشكال والظلال هي الجرح الدامي الذي ينزف دماء هذه الأمة، ومن ثم فلابد أن يسعى هذا الجيل إلى تأسيس وبناء الحرية، ففي نسق الحرية يمكن أن تلتئم معاني التقدم والتحرر والنهضة والوعي والتحضر والتغيير والتنوير والتطور، تلك المعاني التي لم تزل مشتتة على أقلام المخلصين من دعاتها والمضحين في سبيلها منذ مطالع النهضة العربية الحديثة وحتى الآن عند روادها الكبار... إن الضد لا يعرف إلا بضده، وقد أوضحت المحن الأخيرة بما فيه الكفاية أن إزاحة الطغيان وتناقضاته الدامية المنافية لكل أنظمة الحياة والعقل والعمل هي البداية الحقيقة على الطريق[٢].

الحرية والأدب:

يحتل الأدب قلب عبدالغفار مكاوي في حين تسكن الفلسفة في عقله، فهو حين يكتب أدبا فمن السهل على القارئ أن يرى تجاعيد الفلسفة فيه، أو على حد قول أحد الباحثين، معلقا على أحد روايات مكاوي: «إنني كنت أرى مفاصل الفلسفة وفقراتها بارزة في جسم الرواية الطويل»[٣]. ولا غرابة في ذلك لأن الكاتب حين يكتب بدمه الذي يضخه قلبه إلى عقله فتأتي الكلمات مختلطة بمكنونات القلوب موزونة بميزان العقل.ومن ثم نجده يقول عن امتزاج الفلسفة بالأدب عنده: «هو امتزاج لا حيلة لي فيه، لم أتعمده علم الله ولم أحتل له، وإنما هي طبيعتي العاطفية التي أدمنت قراءة الشعر والحياة به ومعه، تنعكس دون قصد على عباراتي، مع حرصي الدائم ألا تكون على حساب ما يسمى بالحقيقة أو الحقائق الموضوعية»[٤].

فإذا ما نظرنا إلى إبداعاته الأدبية سنجد أن الدعوة إلى الحرية هي محور كل إبداع على حده سواء بصورة واضحة جلية أو بصورة رمزية. وقد بدأ مكاوي حياته الأدبية بكتابة

(١) عبد الغفار مكاوي: جذور الاستبداد، ص ٨.

(٢) عبد الغفار مكاوي: جذور الاستبداد، ، ص ٩.

(٣) عبد السلام الشاذلي: د.عبدالغفار مكاوي الأديب الحائر بين الفلسفة والفن، مجلة الثقافة الجديدة، القاهرة، عدد٢٥٦، يناير ٢٠١٢، ص ٥٣.

(٤) عبد الغفار مكاوي: شعر وفكر، ص ٤١٧.

الشعر ثم تخلى عنه، ولكن هذا الحب القديم لا يفتأ يعاود الإطلال برأسه بين حين وآخر في أعماله المتعددة والمختلفة، فعلى تخوم الشعر والنثر نجد له بكائية: «ست دمعات على نفس مصرية» وفيها بكائية إلى صلاح عبدالصبور، التي سوف تمثل أنموذجا من أدبه في هذه المقالة، ذلك الأدب الذي يبحث دائما وأبدا عن الحرية.

ولمكاوي في مجال القصة القصيرة ثلاث مجموعات «ابن السلطان» و«الست الطاهرة» و«الحصان الأخضر يموت على شوارع الإسفلت». وله من المسرحيات ما ينم عن إبداع ومبدع حقيقي، يريد أن يسخر المسرح ليكون منبرًا يمكن من خلاله توصيل دعوته إلى الحرية إلى جانب قيم أخلاقية أخرى، ومن أشهر مسرحياته التي تختلف طولا وقصرا وتختلف أيضا في المهاد والتقنية والجو الغالب: «من قتل الطفل - الليل والجبل - زائر من الجنة - بشر الحافي يخرج من الجحيم - دموع أوديب - القيصر الأصفر ومسرحيات أخرى شرقية - هو الذي طغى - محاكمة جلجامش - المرحوم»..والعديد والعديد من الأعمال الأدبية النقدية أو الشعرية أو في مختلف مجالات الأدب. ولما كان الدكتور مكاوي الفيلسوف والأديب غزير الإنتاج فلا يمكننا أن نرصد للحرية في كل هذه الأعمال فكان لابد أن نتوقف عند عمل نتخذه أنموذجا لهذه الأعمال كلها. وهي «بكائية إلى صلاح عبدالصبور».

والبكائية - وهي رثاء - لا تقف عند حدود التفجع التقليدي و إطلاق الأوصاف التي كان شعراء الفواجع الأقدمون يطلقونها على الموتى ولا تمت بأي نوع من الصلات إلى ذلك النوع من المراثي العربية التي تستخدم نوعا شائعا وجاهزا من التعابير والألفاظ، ولا مكان فيها للحكمة والعظة الساذجة، إنها سيرة قلب وصورة إنسان فنان مبدع يلتقط الشاعر من بين صور حياته وإبداعاته خيطًا خيطا ويسوي من هذه الخيوط جدارية شعرية - إذا جاز الوصف - ويعلقها في جدران حياتنا المهترئة الخربة. وهي حصيلة نصف عام من الحزن والتذكر الأليم لما يقرب من ثلث قرن من الزمالة الفكرية والعشرة الروحية واسترجاع صدى الأفراح والأتراح لمئات الذكريات.وهي أسلوب فني توافرت له كل عناصر الشعر الجيد كالصورة والإيقاع - باستثناء بعض المداخلات النثرية التي لا تخلو من الشعر - وكالتركيب اللغوي الخاص الذي تضيق به الفلسفة ويضيق به النثر عموما ويتسع له وبه صدر الشعر(١).

---

(١) د. عبد العزيز المقالح: ملحق «بكائية إلى صلاح عبدالصبور»، ١٣٢.

والحرية في هذه البكائية - كما هي في سائر الأعمال - عند أديبنا تشغل قلبه وعقله وروحه وتملك عليه كل جوارحه، يجعلها البداية وأيضا مسك الختام، هي المراد والغاية التي ينشدها من الدنيا بأسرها. فيقول في هذه البكائية :

«ماذا كنت أريد من الدنيا

كنت أريد:

أن أُلبس هذا الكون الأعمى ثوب المعنى

وأُنغِّم هذا الزمن الموحش موسيقى

كنت أريد:

أن أجعل من نثر الأيام المتشابه شعرا يبقى

أن يحلو الإنسان بعين الله ويكبر حرا»(١).

بل يجعل مكاوي الحرية هي الهدف الأسمى الذي يعيش من أجله كل إنسان يؤمن بالمستقبل، فليست الحرية «واقعة» نتقبلها على الرغم منا، بل هي «عملية روحية» تعبر عن مقدرتنا على تحرير ذواتنا، نسعى إلى تحقيقها حتى لو داخلنا شعور بأننا لن نتوصل إليها يوما ما، وعن هذا المعنى يقول:

«والحرية

هل عشت لشيء غير الحرية

هل جدت بدمعي إلا لكي أسقي شجرتها الذهبية؟

هل فُجر فيك الغضب فبحت بما أمليت عليك

سوى إيماني بالمستقبل والحرية؟

لكن المستقبل حلمٌ قد لا أشهده

والحريةُ شط قد لا أرسو عليه»(٢).

(١) عبد الغفار مكاوي: بكائية إلى صلاح عبدالصبور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٣١

(٢) عبد الغفار مكاوي: بكائية إلى صلاح عبدالصبور، ص ٨٦.

فينادي مكاوي المحبوبة، مليكة القلب، التي قد سلم لها، ويرجوها أن تعود إلى قصر الورد، كي تكون حصنا منيعا له يحميه من الموت ومن القهر، ويهنأ بطلعتها النورانية، وبعودتها يستنشق رعيتها عبير الحرية، فيقول:

«آه قد سلمت

عودي أنت

عودي لحياتك في قصر الورد قبيل آذان الديك

يا سيدتي وأميرة أحلام العمر

أن يقهرني الموت فكوني أقوى منه ومن القهر

عودي للقصر

كي يستجلي أتباعك طلعتك النورانية

ويشم رعيتك عبير الحرية»[1].

ويعكس لنا مكاوي هاجس قوي يهجس في خاطره دوما عندما يبحر بنا في العمق متحدثا عن قضيته الأولى والأخيرة في الفلسفة والأدب ألا وهي قضية الحرية، وهو أن معنى الحرية الحقيقي الجامع والمانع يضيع منه فلا يستطيع أن يدركه، يتفلت منه فلا يستطيع القبض عليه، فيلتزم أحيانا الصمت، فالحرية مشكلة حيوية لا تكاد تنفصل عن وجودنا نفسه، من حيث أن الوجود الإنساني إن هو إلا وجود حرية تضع نفسها موضع التساؤل، فالحرية وحدها هي التي تستطيع أن تتساءل عن الحرية ؛ ونحن لا نستطيع أن نكشف عن الحرية إلا في صميم ذلك التساؤل نفسه[2]. وعن هذا المعنى يقول مكاوي:

«وانهمرت أسئلة الشعراء الموتى والأحياء عليَّ:

سألوا عن معنى الحرية والحق

عن معنى العزة والصدق

(١) عبد الغفار مكاوي: بكائية إلى صلاح عبدالصبور، ص٦٠.

(٢) زكريا إبراهيم: مشكلة الحرية، مكتبة مصر، الطبعة الثالثة، ص ١٢

نادى الجرح السكين فصحت:

آه يا وطني

ولزمت الصمت»[١].

وهكذا كان عبد الغفار مكاوي الفيلسوف والأديب باحثا عن الحرية، جاعلا منها «بداية البدايات» لكل شيء، فهي قضيته الأولى والأخيرة وهي همه الأول وشغله الشاغل، فلم يحلق في معالجته لها في دنيا الميتافيزيقا، قابعا في أبراج الفلاسفة العاجية المنعزلة عن الناس، لكن بين الناس يحيا حياتهم ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم وإن كان يفضل الحياة والعمل بعيد عن ضوضاء الشهرة، فكانت حياة الرجل مثالًا صادقًا لفكره وإن انتهج طريق مطبوع بطابعه الخاص بعيد عن الشعارات الرنانة والطموحات العريضة التي سرعان ما تتساقط، فأعلن أن كل ما يريده هو أن يعيش في هدوء وأن يعمل في هدوء وأن يموت في هدوء، ومن ثم فلم يكلف نفسه عناء السعي المحموم وراء الشهرة وجذب الأنظار، وإنما يبقى التعفف عن الشهرة مسألة مبدأ وطبع وأسلوب حياة[٢].

(١) عبد الغفار مكاوي: بكائية إلى صلاح عبدالصبور، ص٧٧-٧٨.

(٢) عبد الغفار مكاوي: شعر وفكر، ص٤١١.